التفاعل الحقيقي مع قضايا المسلمين

بقلم الشيخ : محمد بن أحمد السالم

أمة الإسلام .. أمّة خصها الله بخصائص كثيرة وعديدة وأهمها أنها خير أمّةٍ أخرجت للناس ، ومن أهم سمات هــذه الأمــة أنهــا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ..

ولذلك فإن الواجب الملقى على عاتق كلّ مسلمٍ تجاه أمته واجب عظيم لا سيما إذا كان الزمان مثل زماننا اليوم الذين تعاني فيه الأمة من تسلط الأعداء وتكالب أمم الكفر عليها ..

وقد دأب أعداء الدين والملّة على وضع الحواجز والعوائق التي تقلل من تماسك المجتمع المسلم وتعاضده وما زالوا حــتى اليــوم يبحثــون ويدرسون السبل الكفيلة بتخدير الأمة وتفكيكها بعد أن عجزوا عن استئصالها ومحوها من على البسيطة وما هم بقادرين ..!!

فمن وضعٍ للحدود الجغرافية الدولية والتي مزقت الأمة وفرقت ولاءها إلى عصبية ووطنية مقيتة لا تمت إلى الإسلام بصلة .. إلى إشــغال للأمة بقضايا هامشية بل تافهة من رياضة وفن وغيرها من الأمور المحرمة والتي تلهي الناس عن الأمر الذي خلقوا له ..

ومن الأمور التي يحرص الأعداء أن يغرسوها في الأمة ويجعلوها تتجه إليه هو ربط أمة الإسلام بأمم الكفر عبر رابطة الــدول العربيــة أو الأفريقية أو الأوربية أو الأمم المتحدة أو دول بحر قزوين أو دول مجلس التعاون أو غيرها من الروابط التي تجعل رابطة الإسلام بعيدةً عــن الأثر السياسي الفعّال .. والتي تجعل التحاكم حين الخصومات أو الحروب عبر محكمة العدل الدولية الطاغوتية أو مجلس الأمن الكافر !!

ومن السياسات المتبعة والتي أعطيت فيها حكومات الدول الإسلامية الضوء الأخضر – والتي تستهدف امتصاص الغضب والتفاعل العملي مع قضايا الأمة – ؛ سياسة المظاهرات العارمة التي تغص بها الشوارع الإسلامية بعد كل حدث جلل ، فما إن يحدث حــدث يســتدعي التفاعل العملي إلا وترى ألوفاً مؤلفة تخرج في مسيرات حاشدة مبينة رفضها للعدوان ورغبتها في الانتقام من المعتدي إلا أن ذلك يتلاشى من ساعة وصول كل واحدٍ منهم إلى بيته قافلاً من تلك المسيرة أو تلك المظاهرة ..

ولنأخذ على ذلك مثالاً واحداً وهو مقتل الشيخ أحمد ياسين رحمه الله ، فعندما اغتيل عمّت المظاهرات العالم الإسلامي والتي شارك فيهــا مئات الألوف من المسلمين بمشاعر صادقة وقلوب متقطعة ونفوس للثأر طالبة ، وإذا تصفحت الإنترنت رأيت المراثي الشعرية والمقــالات الحماسية ، والمقطوعات النثرية ، ورأيت الخطب التي ألقيت والمحاضرات التي سجلت تملأ المواقع الإسلامية ، وترى وتسمع مــن يتهــدد ويزمجر ويتاجر بقضيته عبر الإذاعات والفضائيات ، ولكن كلّ هذا لا يغني شيئاً إذا توقف عند هذا الأمر ، لأننا أبصرنا كيف أن كل من تكلّم وكلّ من تعاطف وكلّ من زمجر قد رجع إلى حياته اليومية وكأن شيئاً لم يكن و لم يتغير في حياة الناس سوى أنهم كــانوا يقولــون أحمد ياسين حفظه الله والآن أصبحوا يقولون : رحمه الله .

نعم بكل هذه البساطة انتهت قضية الشيخ أحمد ياسين في قلوب الناس و لم يبق له إلا الذكر الحسن ..

ونستثني من هذا كلّه موقف المجاهدين سواء في أرض فلسطين أو غيرها ممن تعهدوا بالرد أو قاموا به ، فهؤلاء ردود أفعــالهم وتفاعلــهم عملي ملموس أثره على المسلمين وعلى المتعدين .. وهو عين الموقف الصحيح تجاه كلِّ قضايا الأمة ..

إنَّ الخطب الحماسية والمظاهرات السياسية والمسيرات السلمية لا ترجع الحقوق الضائعة ، ولا توقف الظالم عن ظلمه ولا تردع الباغي عن بغيه ، وليست هي لوحدها الحل الشرعي الذي أمرنا الله به وفعله رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ..

إن التفاعل الحقيقي مع قضايا الأمة هو مختصرٌ في قول العزيز الحكيم سبحانه وتعالى : ﴿ **وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر** ﴾

والتفاعل الحقيقي هو عين ما قاله محمد صلى الله عليه وسلم كما في البخاري من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال : " **وإذا استنفرتم فانفروا** "

نعم هذه باختصار الطريقة الشرعية للتفاعل مع قضايا المسلمين وهي مقتضى العقل والحكمة فالغريق الذي يستصرخ ويطلب الغوث ليس الحل تجاهه رفع الصوت بالبكاء والعويل فلن يغنيه ذلك شيء ، ولا استقبال القبلة ورفع اليدين بالدعاء كلا فالحكم لو كان الإنسان قد دخل في الصلاة أن يقطعها ويذهب مباشرة لنجدة الغريق وإنقاذه من الغرق ..

صحيحٌ أن البكاء والتأثر لمصاب المسلمين هو دلالة واضحة على الشعور بالجسد الواحد إلا أنه لا يكفي ..

وصحيحٌ أن الدعاء وطلب الله تعالى وسؤاله كشف الكرب مطلبٌ شرعي ووسيلة مشروعة عند كلِّ مصيبة إلا أنها ليست لوحدها الحل والواجب المطلوب كلا ..

فالواجب التي دلت عليه النصوص الشرعية أن يقوم الإنسان بكل ما بوسعه ومقدوره فعله تجاه إخوانه ، وإلا فإن الوقوف موقف المتفرج تجاه قضايا الأمة هو صورة من صور الخذلان لهم والوعيد لمن فعل ذلك شديد ..

قال صلى الله عليه وسلم : " **من لم يغز أو يجهز غازياً أو يخلفه في أهله بخير إلا أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة** " .

نعم لا بد من وقفة عملية صادقة مع المجاهد لمن يستطيع ذلك بتجهيزه أو خلافته في أهله بخير وإلا فالوعيد في ذلك واضحٌ وبيّن ..

والواجب تجاه الأسير مختصرٌ وواضح ومجملٌ في قوله صلى الله عليه وسلم : " فكوا العاني " .

فالأسير إذاً لا يحتاج إلى مظاهرة في شارع ، ولا خطبة في مسجد فحسب ، بل يحتاج إلى رجال يفلون الحديد بالحديد ، ويقارعون الأعادي ليفكوا العاني والأسير ..إما بالمساومة والتبادل أو بالفداء والمال ..

وهكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام كما في قصة الرجل الذي نصر المرأة على اليهود من بني قينقاع ..

وموقفه ﷺ من عمرو بن سالم لما غدرت بنو بكرٍ بخزاعة وأتى عمرو بن سالم شاكياً للرسول ﷺ ما جرى لبني قومه في قصيدته المشهورة:

يارِبِّ إني نَاشِـــدٌ مُحَمَّـــدا ... حِــــلْفَ أَبِينَــا وَأَبِيــه الأَتْلَـــدا
قَدْ كُنْتُمُ وُلْدَاً وكُنـــَّا وَالِـــدا ... ثُمَّتَ أَسْــــلَمْنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَـــــدا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصـــْراً أَبَـــدا ... وادْعُ عِبَــــادَ الله يَأْتُوا مَـــــدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ الله قَدْ تَجَــــرَّدا ... أَبْيَضَ مِثْلَ البَــدْرِ يَسْمُــو صُــعُدَا
إنَّ قُرَيْـــشاً أَخْلَفُوكَ المَوْعِــدا ... ونَقَــــضُوا مِيثَاقَـــكَ المُؤَكَّـــــدَا
وَجَـــعَلُوا لِي فِي كَدَاءِ رَصَـــدَا ... وَزَعَمُوا أَنْ لَسْـــتَ تَدْعُـــو أَحَـــدَا
وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَــــــــدَدَا ... هُمْ بَيَّتُونَا بِالـــــوَتِيرِ هُـــجَّدَا
وَقَتَلُونَـــا رُكَّعَـــاً وَسُـــجَّدَا

يقول: قُتِلْنَا وقَدْ أَسْلَمْنَا، فقال رسولُ الله ﷺ : (نُصِرْتَ يَا عَمْرو بنَ سالم)، ثم عرضَتْ سحابةٌ لرسول الله ﷺ فقال: (إنَّ هذه السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بني كَعْب) .. ثم سيَّر الجيش قِبالة المشركين في مكة ..

وموقفه صلى الله عليه وسلم من العرنيين حينما قَتَلُوا الراعيَ ، واسْتَاقُوا الذَّوْدَ ، وكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهم قال الراوي مبيناً تفاعل النبي صلى الله عليه وسلم مع الحدث حيث بعثَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في طَلَبِهِمْ ، فَأَمَرَ بِهِمْ ، فَقَطَعَ أَيْـديَهُم وَأَرْجُلَهُـم ، وَتَرَكَهُم في ناحِيَةِ الحَرَّة حتَّى ماتُوا ، وما استغنى صلى الله عليه وسلم عن الدعاء كما جاء في حديث أبي الزُّبير ، عن جابر : فقَال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ عَمِّ عَلَيْهِم الطَّرِيقَ، واجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ أَضْيَقَ مِنْ مَسْكِ جَمَل) ، فعمَّى اللهُ عليهم السبيلَ ، فأُدْرِكُوا...

هذا هو تفاعل النبي صلى الله عليه وسلم مع قضايا المسلمين ومستجدات الأحداث ..

وإذا نظرنا إلى الرجال الذين سطر التأريخ أسماءهم وخلّد ذكرهم على مرّ الأزمان لا تجد في الغالب إلاّ أنهم أولئك الرجال الذين يتكلمون بالفعال قبل المقال فصلاح الدين الأيوبي لم يكن منظماً للمظاهرات ولا معلقاً في قناة الجزيرة على أي حدثٍ مهمٍ عن طريق الاتصال ..

بل كان رجلاً في المعارك ، وفارساً على الخيل منطقه أنّ ما أُخذ بالقوة لا يرجع إلاّ بالقوة ، وكذلك كان معه في القتال الموفق ابن قدامة الذي لم يرَ أنه على ثغر في التأليف العلمي والتأصيل الفقهي حتى ولو كان لمسائل الجهاد بل صدق الأقوال بالفعال وخرج بنفسه يذود عن حمى أمةِ الإسلام وتحرير القدس من الغاصبين ..

وهاهو شيخ الإسلام ابن تيمية الذي قابل غزو التتار بتحريض الأمة على القتال لا توجيهها إلى التعايش والسلام مع المعتدين لأنه يفقه قول الله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ ، ويعلم أن الواجب المتعين الذي لا واجب بعـد الإيمـان أوجب منه هو مدافعة هذا العدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا .. فلم يقم رحمه الله بمظاهرات عارمةٍ في شوارع دمشق !! ولم يسـع لجمع مليون توقيع يرفضون غزو التتار !! ولم يعلن تأسيسه لحملةٍ سلميةٍ لمقاومة العدوان فالوقت وقت قتال وعدوٍ زاحفٍ بجيوشٍ غازية لا وقت كلام ومؤتمرات يشرف عليها أعوان المعتدين ..!!

وتستمر تلك النماذج المشرقة في تأريخ الأمة عبر القرون سائرة على منهج النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع الأحداث والمصـائب التي تنزل بساحة المسلمين ومنهم في هذا الزمان الشهداء البررة – نحسبهم والله حسيبهم – الذين قتلوا في أفغانستان ممـن لم يرضـوا أن يقبعوا في بيوتهم ويكتفوا بالحوقلة وهم يشاهدون القصف الصليبي على بلاد الإسلام ويسمعون استصراخ المسلمين بهم فهبـوا إلى تلـك البلاد بأنفسهم وأموالهم ليلقوا الله شهداء مقبلين قد برأت ذمتهم أمام الله وقاموا بواجبهم المطلوب منهم شرعاً .. معرضين عن كل مخذِّلٍ ممن يقول : " لو أطاعونا ما قتلوا " أو " لو نعلم قتالاً لاتبعناكم " تالين قول الله تعالى : " قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحـن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا "

فيامن تريد نصر إخوانك والتفاعل معهم لتعلم أن البكاء والعويل ، والصراخ والكلام ، لا تنفع إذا كانت هي الفعل الوحيد الذي تعملـه وإنما عين النفع والنصرة لإخوانك أن تنفر للنصرة بمالك ونفسك ودعائك وكل شيء تملك وبهذا نحقق معنى الأخوة الإسلامية الحقّـة لا تلك التي تطلق إدعاءً أجوفاً ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

ولا أنسَ أن أذكر بأن التعجل والمسارعة في نصرة المظلوم وإغاثة الملهوف هي الواجب العيني فضلاً أن يكون نقيصة وعيباً في حق من يقوم بها وكما قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.